

حدود التناص وبنية الخطاب في رواية " نوار اللوز " للأعرج واسيني

د. خليفة قرطي — جامعة البليدة 2

يمثل التناص إحدى الآليات الإبداعية التي ترمي إلى تحقيق الثراء للنص السردي ، من خلال ربطه بجملة من المرجعيات غير المحددة ، وليس الغاية من وراء ذلك إعادة إنتاج تلك المرجعيات وإنما إتاحة تجدها في سياقات مختلفة . وتعد رواية " نوار اللوز — تغريبة صالح بن عامر الزوفري للكاتب الجزائري واسيني الأعرج من بين النصوص الروائية الجزائرية التي استفادت من هذه الآلية بغية تحقيق هدفين على الأقل : ربط الصلة بين الشكل السردي المعاصر (الرواية) والشكل التراثي (السيرة) ، وذلك على مستويات متعددة ، وهذا ما يسعى هذا المقال إلى مقارنته .

المقال :

تجاوز حضور التراث في الرواية الجزائرية المعاصرة حدود تضمين بعض العناصر الفلكلورية في ثنايا النصوص الروائية لغاية من الغايات في السياقات الدلالية المختلفة ، إلى تجربة خاصة وجديدة تروم أبعادا أعمق من ذلك لعل أهمها البحث عن الشكل السردي العربي الجديد الذي يمكنه استيعاب الرؤية المعاصرة وتحقيق هويته الخاصة لتمييز عن الشكل الغربي .

ومن هذا المنظور فإن الأمر ، يبدو في رواية " نوار اللوز أو تغريبة صالح بن عامر الزوفري " للكاتب الأعرج واسيني ، الخوض في مسار خاص من أجل " البحث عن تجربة شكلية أصيلة " ⁽¹⁾ ولم تكن تجربة الأعرج واسيني في نصه " نوار اللوز " معزولة عن توجه إبداعي عربي عام بدأ يتأسس آخذاً منحى جديداً منذ سبعينيات القرن الماضي ، استلهه ، بشكل صريح وجريء الكاتب جمال الغيطاني ومن قبله محمود المسعدي وغيرهما ، ولا نرغم أي تأثير مباشر من هذه التجارب في تجربة الأعرج واسيني عدا ما يمكن أن يتشكل من هاجس حقيقي وطموح إلى التجديد والتفرد . ولكن الواضح أن أية تجربة إبداعية لا يمكن أن تولد في معزل عن التأثيرات ، بوعي أو دون وعي في بعض الأحيان . والسؤال الجدير بالطرح هنا هو : هل يكون من باب الصدفة أن يولد نص " نوار اللوز " بعد عشر سنوات تقريبا من ظهور نصوص تجريبية في المشرق العربي ؟

لكن العودة إلى كرونولوجيا النصوص الروائية التي صدرت للأعرج واسيني يمكنها أن توضح ذلك التحول في مسار الكاتب الإبداعي منذ ظهور رواية " نوار اللوز " ، فهو لم يتجاوز في تجاربه السابقة ، سيما في تجربته " وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر " رتابة النموذج الروائي الغربي الذي يتخذ الشكل الغربي مرجعية له . وما يؤكد هذا التوجه الجديد لدى الكاتب أن نص " نوار اللوز " لم يكن الوحيد ضمن هذا التوجه التجريبي الجديد ، وإنما أعقبته تجارب أخرى لعل أبرزها نصه السردي

" فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ... أو رمل المائة " ..ويبدو أن تجربتي الأعرج واسيني كانتا "ضمن التجارب الروائية العربية التي أقامت لها علاقات خاصة بالتراث السردى العربى القديم مثل ما نجده فى أعمال إميل حبيبي و الغيطاني و المسعدي و الميلودي شغوم وسواهم"(2)

ولقد أكدت هذه الخطوة تلك الوتيرة المتسارعة التي سارت عليها الرواية العربية فى الجزائر ، إذ لم تعرف فترة مخاض طويلة ، فقد اختصرت المراحل ، وبدأت من أول وهلة أقرب إلى النضج ، لم تحتج عقودا من الزمن لتبلغ رشدها ، كما حدث فى المشرق العربى أوائل القرن الماضى ، ثم إنها انخرطت ، وبالتوتيرة ذاتها ، فى مسار تجربى متميز ، لم تحتج لليسر فيه سوى إلى عقد واحد من تأسيسها ، بينما احتاجت الرواية العربية فى المشرق إلى نحو ستة عقود .

ث م إن هذا العقد ، الذى يفصل بين التأسيس والتجريب ، قد شهد مختلف المراحل التى مرت بها الرواية العربية منذ تأسيسها ، إذ تم الانتقال بتسارع كبير من الرومانسية إلى الواقعية ، فالواقعية الاشتراكية ثم البحث عن الشكل الجديد بالاستلهام من الموروث التراثى ، و هو حمل البعض على القول إن رواية نوار اللوز تحمل "تصورا جديدا للكتابة الروائية و طريقة فنية متميزة فى الأسلوب و اللغة"(3) .

كانت تجربة الأعرج واسيني " نوار اللوز ...تغريبية صالح بن عامر الزوفري " متميزة عن تجارب عربية أخرى سابقة أو لاحقة وذلك بالنظر إلى الخصوصيات التالية :

1 - تشكل السيرة الشعبية خلفية مركزية للنص الروائى ، وتحديد السيرة الهلالية ، على خلاف تجارب أخرى استلهمت من أشكال تراثية أو نصوص بعينها.

2- إن " نوار اللوز " ، وهى تتعلق بالسيرة الهلالية تحقق تعلقا بالشكل - أى السيرة الشعبية - وبالنص المرجعي - أى سيرة بني هلال.

3 - حضور النص الجديد الذى يشكل حكاية الراهن ، بالموازاة مع هذه الخلفية المرجعية ، ويفرض النص التراثى حضوره من خلال توظيفه فى سياقات دلالية محددة تومئ إلى العلاقات الممكنة بين مواقف الراهن فى النص الجديد ومواقف مشابهة من النص التراثى.

و مع ذلك فإن الأعرج واسيني ركز تعلقه بالسيرة كنوع سردي له ملامحه الشعبية وحاول التفاعل معه بطريقة خاصة لا تقف عند حد المحاكاة أو التحويل و لكنه تجاوز ذلك إلى "المعارضة" التى تبرز من خلال نبرة السخرية اللاذعة"(4)

ويحيلنا قول سعيد يقطين السابق على إمكانية الكشف عن توجه مغاير من خلال تجربة الأعرج واسيني فى " نوار اللوز" تتأسس على آلية قديمة درج عليها المبدعون العرب القدامى ، وقد شملت الشعر والنثر معا ، ألا وهى آلية المعارضة .

وإذا تحقق للأعرج واسيني أن يكون مسعاه الإبداعي قائماً على هذه الآلية القديمة فإن النص قد حقق جزءاً من هويته الخاصة انطلاقاً من هذا المسعى ، لأن الأمر لا يقف عند حدود استحضار التراث أو توظيفه بشكل من الأشكال وإنما يتجاوز ذلك إلى انزياح قصدي وواع ، يروم قراءة الراهن على ضوء نصوص أو أشكال باتت تشكل مرجعية ثقافية وأدبية خاصة.

وتقوم الهيكلية العامة لرواية "نوار اللوز" عنوان ، و فاتحة ، و أربعة فصول . يتكون العنوان من عنصرين هما :

العنوان الرئيس أو الأول : " نوار اللوز "

العنوان الفرعي أو الثاني : " تغريبة صالح بن عامر الزوفري .

وفي الفاتحة ، القسم الثاني من هذه الهيكلية فنجد " كلمة الكاتب " و نصاً مقتبساً من كتاب "إغاثة الأئمة في كشف الغمة " للمقرئ.

أما متن الرواية ، الذي يشكل القسم الثالث من الهيكلية فقد تضمن أربعة عناوين هي فصول الرواية وهي :

الفصل الأول : تفاصيل صغيرة

الفصل الثاني : ناس البراريك

الفصل الثالث : احتفالات موت غير معلن

الفصل الرابع : صهيل الجياد المتعبة .

"تحمل رواية الأعرج واسيني عنواناً رئيسياً هو نوار اللوز سجل على غلاف الكتاب بحروف كبيرة إلى جانبه سجل عنوان فرعي بحروف صغيرة "تغريبة صالح بن عامر الزوفري" و للعنوانين الرئيسيين والفرعي علاقة بمعنى الرواية ، فهما يتكاملان من حيث دلالتها على عناصر أساسية تؤلف نص رواية "نوار اللوز"... (5)

يحمل العنوان الرئيس للرواية " نوار اللوز " على لحظة زمنية متكررة ، تتصل بالأبعاد الزمانية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، فهي لحظة أزلية تتكرر في فترة معينة من السنة وفق شروط خاصة ، لكنها في النص تقف عند حدود الحاضر الذي تحكيه الرواية .

أما العنوان الثاني ، أو العنوان الفرعي " تغريبة صالح بن عامر الزوفري " ، فإنه يحيل على سياقين تاريخيين ينتمي أحدهما إلى الماضي وهو " التغريبة " المرتبطة في الأصل بالسير الهلالية ، وثانيهما الحاضر الذي ينتمي إليه " صالح بن عامر الزوفري . لكن التواء حاصل بين العنوانين ، من حيث إشارتهما كليهما إلى الزمن ، والربط الواضح بين الحاضر والماضي . وتحاول الرواية بذلك أن تحقق " وجودها من التاريخ الجماعي و من مدونة التراث الفني الشعبي ذي الطابع الملحمي (6) .

وفي ظاهر الأمر فإن هذا التقريب الحاصل بين بعدي الحاضر والماضي في العنوان الثاني " تغريبة صالح بن عامر الزوفري " يمنح الملحمية صورة أخرى ، غير تلك العالقة بالأذهان ، فهي ليست ملحمة جماعة - كبنى هلال - وإنما هي ملحمة من نوع جديد بطلها الفرد الواحد وليست الجماعة كما هو الأمر في السيرة الهلالية - المرجعية التي استحضرتها الكاتب .

ثم إن النص لا يعيد التذكير بأحداث منتمة إلى الماضي باتت في حكم التاريخ وإنما يحاول سوق أحدا الراهن إلى تاريخ جديد يؤسس لرؤية مختلفة تتغذى على بعض معطيات التاريخ والتراث ولكنها تنتمي إلى عصرها ، لذلك يكون صالح بن عامر الزوفري يسطر ملحمة الخاصة أو سيرته الخاصة في " نوار اللوز " ، بعيدا عن التماهي المطلق مع النص أو الشكل المرجعيين . لكن السيرة الهلالية لم تعد " تمثل الإمكانية الوحيدة التي استخدمها المجتمع الجزائري للتعبير عن واقعه المباشر بصفة عامة " (7) . واللافت في العنوان كلمة " التغريبة " ، التي تحيل على حركة معينة ارتبطت بجماعة محددة ، ذلك أن " التغريبة أطلقت على الجزء الأخير من سيرة بني هلال التي تحكي ارتحال قبائل بني هلال نحو شمال إفريقيا ، و هي قصة ذات طابع ملحمي .. " (8).

والثابت أن لفظ " التغريبة " اقترن في ما هو شائع بالسيرة الهلالية ، ولا نكاد نعرف نصا آخر شائعا خص بهذا اللفظ وبه اشتهر . وهو يحيل على ثلاث دلالات :
 أ- التغريبة : بمعنى السير نحو الغرب . أي الغرب بمعناه المطلق .
 ب- التغريبة : بمعنى الزحف أو التوجه نحو المغرب (الإسلامي)
 ج- التغريبة : بمعنى الاعترا ب أو مفارقة الديار والأهل . (9)

وأيا كان المعنى الذي تحيل عليها لفظة " التغريبة " فإن الدلالات الثلاث السابقة ترتبط كلها بالقسم الثاني من السيرة الهلالية ، الذي يتناول وقائع الهلاليين ببلاد المغرب . و الأصل في " التغريبة " أنها حركة سير جماعي من الشرق إلى الغرب ، وكذلك كانت رحلة الهلاليين وغزواتهم التي شنوها انطلاقا من الجزيرة العربية نحو الغرب ، بدء بمصر ثم سائر بلاد المغرب العربي .

وعلى الرغم من أن السيرة تروي بطولات الأفراد المنتمين إلى الجماعة فإن التغريبة لم تكن قاصرة على أولئك الأبطال وإنما كانت " تغريبة " جماعة ، ولقد حاولت " نوار اللوز " استعارة بنية التغريبة مع إحداث المفارقة أو الانزياح في نسبتها إلى فرد واحد هو " صالح بن عامر الزوفري " ، والغاية من هذا الانزياح إظهار التباين على مستوى الشكل التعبيري ، ففي " نوار اللوز " يتعلق الأمر بخطاب روائي جديد ينتمي إلى شكل أدبي معاصر يتوسم الانفتاح ، بينما يظل نص " السيرة الهلالية " مغلقا على ما احتوى من مادة سردية وغير سردية.

و في الفاتحة يمكن الوقوف على مفارقة بارزة وتنافر باد بين كلمة الكاتب ونص المقريري . لقد كانت كلمة الكاتب " دعوة إلى القارئ للتنازل بقراءة تغريبة بني هلال (10) بينما لا تبدو العلاقة مباشرة بين هذه الكلمة ونص المقريري الذي جاء به لغاية ما.

وثمة مفارقة أخرى على مستوى فصول الرواية وعناوينها ، فبينما يشكل متن الفصول مادة سردية متجانسة ومتكاملة في البناء والدلالة ، تتوفر مبدأ الاستمرارية والحضور لعناصر البنية السردية المختلفة ، سيما الأفعال والعاملين ، تشكل العناوين حالة من التشظي في علاقة بعضها ببعض ، إذ لا يمكن إيجاد الرابط القوي بين هذه العناوين الأربعة (الفصل الأول - تفاصيل صغيرة: ناس البراريك - احتفالات موت غير معلن - سهيل الجياد المتعبة) .

إن قراءة هذه العناوين منفردة ، مقطوعة عن السياق السردى المتصل توحى بأننا إزاء أجزاء متنافرة ، عناوين تحيل على مدلولات متعددة لا تتصل بنص سردي أو غير سردي واحد. لكن حضور بعض العناصر في المتن الروائي ، على امتداد الفصول الأربعة ، من قبيل تداول ذكر شخصية " أبي زيد الهلالي " و " الجازية " وغيرهما ، يزيل ذلك الإيحاء .و في نهاية المطاف فإن الكاتب لا يستهدف "تغريبة صالح بن عامر الزوفري من خلال ربطه هذه التغريبة الجديدة بنظيرتها القديمة "تغريبة بني هلال " . (11)

السيرة و استراتيجية الإبداع

السيرة شكل شائع في التراث العربي القديم ، استخدمت لتسجيل محطات من حيوات من الأعلام البارزين الذين احتاج الناس إلى تخليد مآثرهم بالنظر إلى الأهمية الكبيرة التي اكتسبها في حياتهم والتأثير الذي مارسوه في مجتمعاتهم أو في البشرية قاطبة. و"يحيل لفظ السيرة" دلاليا على "الطريقة" و تقتزن "الطريقة" ب "السنة" . و السيرة أيضا هي "الطريقة المحمودة المستقيمة ، كما تدل على الحديث ، فيقال سير سيرة ، تحدث حديث الأوائل" (12).

وفي العرف فإن إطلاق لفظ " السيرة " دون إضافته أو وصفه يحيل على " السيرة النبوية .لكن العرب عرفوا إلى ذلك أنواعا أخرى من السير ، شملت أعلام الحرب والسياسة والفكر والأدب ، لكنها ظلت سير أفراد ، وقلمنا نجد سير جماعات في ذلك التراث. ولعل السيرة الهلالية أو سيرة بني هلال هي من أبرز تلك السير التي تروي حقبات من تاريخ جماعة فتعنى بحياتها وما كان من أمر حلها وترحالها وحروب أبنائها و أبطالها مع خصومهم وأعدائهم " فسيرة بني هلال هي قصة قبائلهم حسب رواية تترجح بين التاريخ و الخيال ، بين الحقيقة و العجيب ، بين الأصل التاريخي و الرواج الشعبي المذهب " (13).

وتحاول رواية " نوار اللوز " أن تتعلق بالسيرة الهلالية على مستويات محددة أبرزها:

1- الاقتراب من شكل السيرة الهلالية من خلال العنوان الفرعي أو الثاني " تغريبة صالح بن عامر الزوفري .

2 - استحضار شخصيات السيرة الهلالية في المتن الروائي على سبيل الإيماء أو المشابهة أو لغايات أخرى " و يتضح التعلق الوثيق بين أعلام التغريبتين إلى الدرجة التي يصعب معها أحيانا تمييز الشخصيات المشاركة في القصة عن غيرها من الشخصيات المستدعاة في عالم تغريبة بني هلال " (14). وباستثناء لفظ " التغريبة " الذي ورد في العنوان الفرعي للرواية فإن عناوين الفصول الأربعة لا تؤول إلى أية علاقة ممكنة بين الرواية والسيرة ، ويدفع ذلك إلى الاعتقاد في أن هم الكاتب كان مؤسسا على إنجاز نص روائي ينتمي في المقام الأول إلى جنس الرواية ، ولم يكن الأمر موجها إلى إعادة كتابة السيرة الهلالية بشكل مختلف.

ويتأكد هذا الاستنتاج من خلال المساحة الهائلة المفردة لأحداث الراهن والوقائع التي جرت لصالح الزوفري أكثر من تلك المتعلقة بأبي زيد الهلالي - نظير صالح بن عامر الزوفري - التي تروى السيرة الهلالية ، لكن يمكن القول إن " الرواية تستمد مواقف شخصوها وعناصر أجواء عالمها من القصة الشعبية لتوظيفها في بنائها " (15).

ويتخلص هامش " السيرة " في " الخطاب الروائي " بقدر التركيز على الأحداث والشخصيات المنتمية إلى الحاضر أو الراهن . ومع هذه الحركة يتأكد حضور " نوار اللوز " أكثر من حضور " التغريبة " بدلولها المرجعي الماضي . لكن المراد هو كتابة سيرة جديدة تتقاطع في بعض المواطن مع المرجعية لكنها سيرة مغايرة لا تروي بطولات وغزوات بقدر ما تروي هموم فرد " زوفري " (16) وعذابات وانكساراته . ولعل هذا ما تعبر عنه الشخصية في هذا المقطع : " نهارنا خويا عمر مخيف و ليلنا متعب كدمع اليتامي ، تصور حين غادرتي الجازية و عادت شقوق الحائط إلى التناهما الطبيعي أغمضت عيني في ساعة متأخرة من الليل رأيت السكاكين تهاجم حواسي الخمسة و النيازك التي تتدفق في العيون و في بطون أطفال الأحياء الفقيرة واستيقظت على ربح صحراوية حامية حولت خضرة العيون إلى يابس مع أن المسألة في هذا الفجر تبدأ بالشكل الدرامي المرفوض " (17)

ويبدو انفصال " نوار اللوز " - الرواية عن السيرة الهلالية - المرجع ، في تلك المفارقات التي تجسدت على مستوى البنى المختلفة ، ومنها بنية " البطولة " الفردية التي تكرسها السيرة الهلالية مقابل انهزامية شخصية صالح بن عامر الزوفري في الرواية وما تكابده من بؤس وظلم وقهر وحرمان ونسيان ، فالزمن في " نوار اللوز " لم يعد زمن البطولة كما تحبل بذلك السيرة الهلالية ، وهذا ما يشكل أحد الانزياحات المهمة بين الشكليات الأدبيين (السيرة والرواية).

وربما يقترب الأعرج واسيني في مسعاه هذا من لحظة الانزياح الأكبر الذي شهدته الأنواع الأدبية مع ظهور رواية " الدونكيخوت دي لا مانشا " ، حيث الإعلان عن نهاية زمن البطولة والفروسية وبداية زمن جديد ، كان زمن الرواية الذي أعلن عن نهاية زمن الملحمة ..و لا أدري إن كنت مصيبا في القول إن رواية " نوار اللوز " تؤدي الدور نفسه الذي أدته رواية " الدونكيخوت دي لا مانشا " إذ أعلنت نهاية زمن "أب زيد الهلالي " والدخول في زمن " صالح بن عامر الزوفري " .
وفي سياق الموازنة بين رواية " نوار اللوز " وتجارب عربية أخرى سبقتها أو جاءت بعدها يمكن تدوين الملاحظات التالية :

- 1 - سعت بعض التجارب الروائية العربية إلى " فسخ الروح " في بعض الأشكال التعبيرية العربية ، الأدبية وغير الأدبية (التاريخ في " الزيني بركات " ، الحديث في " حدث أبو هريرة قال " ، أدب الرحلة في " هائف المغيث ") واقتراحها وعاء بديلا لبنية الرواية المعاصرة وشكلها.
- 2- تقترح " نوار اللوز " عملية معاكسة تتمثل في الإفادة من " مطواعة " شكل الرواية ليتمكن استيعاب حتى الأشكال التراثية من دون أن يفقد هويته أو يفقد تلك الأشكال هويتها .
- 3 - خلع صفة " النص المتعالي " عن النصوص أو الأشكال التراثية لتتحول إلى مجرد مادة يمكن استثمارها طوعا وعند الحاجة ، ومن ثم الوصول إلى " تجريدها " من تلك الحالة

لتغرية ...ملحمة الفرد في " نوار اللوز "

تشكل "التغرية " بنية أساسية في رواية " نوار اللوز " فهي الخيط الواصل بين شكل الرواية والسيرة الهلالية ، وهي ، إلى ذلك ، مدار الفعل والحركة المتصلين بشخصية الرواية الرئيسية " صالح بن عامر الزوفري " والذين يقتربان من مفهوم الرحلة .وفي الواقع فإن "إن التغرية جزء من سيرة بني هلال لذلك ارتبط في ذهننا اتصال التغرية بالجماعة . أما النوع الأدبي الأكثر ارتباطا بالفرد في ثقافتنا القديمة فهو الرحلة " .⁽¹⁸⁾ و يكاد استخدام هذا الدال يقصر على السيرة الهلالية دون غيرها من النصوص أو الأشكال التعبيرية في الأدب العربي .

غير أنه ينبغي التنويه إلى أن " التغرية " ليست هي السيرة الهلالية كلها وإنما تمثل الجزء الأخير منها ، أي ذلك الزحف الذي قام به الهلاليون تجاه بلاد المغرب العربي فاستولوا على أجزاء منها واستوطنوها .وقد كان " زحفا جماعيا " من مجموعة قبائل تميز فيها أفراد معينون بالبأس والبطولة .وفي " نوار اللوز " فإن حركة " صالح بن عامر الزوفري " لم تكن زحفا أو غزوا ، كان مجرد عبور مستمر لحدود الجزائر غربا باتجاه المغرب الأقصى بغرض التهريب ، و " وعندما " ننظر إلى مصطلح التغرية في بني هلال نجده يوحي إلى دالتين متآزرتين أولهما تعني التهريب بمعنى مفارقة الوطن الأصل مع ما تحمله مفارقة الوطن

من معاناة و غربة وثانيتها تعني التوجه نحو بلاد المغرب على اعتبار كون الوطن الأصل لوطن التغريبة هو المشرق " (19).

وكما كانت "نوار اللوز" إعلانا عن انتقال معرفي على مستوى الشكل التعبيري ، من السيرة إلى الرواية ، فإنها كانت انتقالا ببعض المفاهيم من اصطلاح أصيل متداول إلى دلالة جديدة تفرض نفسها بقوة حضورها ، ومن ذلك مفهوم " التغريبة " الذي أزيح عن أصله ، حيث الارتباط بحركة الجماعة ، إلى التغريبة " ومفهوم " الرحلة " .

لكن ثمة تقاطعا باديا بين حركة الجماعة في السيرة الهلالية وحركة الفرد في " نوار اللوز يمكن تلخيص ملاحظه في الآتي :

1 - كانت حركة الجماعة في السيرة الهلالية وصالح بن عامر الزوفري - الفرد ، في الرواية نحو وجهة واحدة : من الشرق إلى الغرب .

2 - كان لرحف الهلاليين على بلاد المغرب العربي دوافع اقتصادية في المقام الأول ، فهم قبائل عاشت على حياة الترحال بحثا عن الماء والكلأ ، وكذلك كانت حركة تنقل صالح بن عامر الزوفري لدوافع اقتصادية ، فهو يمارس التهريب عبر الحدود بحثا عن لقمة العيش .

3 - وإذا أخذنا البعد النفسي في " التغريبة " والذي يمكن أن يمين " الاغتراب " أبرز تجلياته، فإن الجماعة عاشت حالة اغتراب وهي بعيدة عن ديارها الأصلية في الجزيرة العربية بآلاف الأميال ، وكذلك عاش الفرد - صالح بن عامر الزوفري هذه الحالة حين انتقاله إلى الجهة الأخرى في المغرب الأقصى بعيدا عن قريته الصغيرة التي لم توفر له لقمة العيش .

وأيا كانت العلاقة بين الجماعة والفرد في رواية " نوار اللوز " فإن ما يهم في نهاية المطاف هو إمكانية أن تكون الرواية فضاء لالتئام بعض المتناقضات ، والربط بين الأشكال والأزمنة ، بين السيرة بوصفها شكلا انتهى إلى الماضي والرواية ، بوصفها من أكبر إنجازات العصر الثقافية والفكرية . ولقد أفلح الأعرج واسيني من خلال هذا النص في أن يثير السؤال الأهم : هل يمكن استمرار الماضي في الحاضر ؟ ما المسافة المفترض أخذها في هذا الحاضر حيال منجزات الماضي ؟

بنية الشخصيات: لم تكتف رواية "نوار اللوز" باستعارة بعض البنيات السردية و اللغوية من السيرة

الهلالية و إنما تجاوزت ذلك إلى استعارة بنية الشخصيات فاستحضرتها في سياقات و مواقع كثيرة من

المتن الروائي . و لعل الغاية من ذلك الاستحضار كانت تأكيد " تناصها " مع النص التراثي في حد ذاته

مما يعزز الصلة العضوية بين النص المنتج و النص التراثي " و يتضح التعلق الوثيق بين أعلام التغريبتين

إلى الدرجة التي يصعب معها أحيانا تمييز الشخصيات المشاركة في القصة عن غيرها من الشخصيات المستدعاة في عالم تغريبة بني هلال " (20).

و تعلن الرواية عن حضور شخصيات السيرة الهلالية في متنها منذ صفحاتها الأولى، و يمتد ذلك إلى الصفحات اللاحقة ، حتى يبدو هذا الحضور سمة من السمات البارزة في تجربة "التناص" و من ذلك هذه المقاطع التي اخترناها :

"هه يا الجازية يا أخت الحسن بن سرحان ليلة البارح انتظرتك ... (21)

"حتى الجازية حاربوها فماتت كل النطف التي شقت رحمها سرا" (22).

"و لكنه كان خضرا يا عباد الله لم يكن أباً زيد الهلالي " (23)

"لست الشهباء و لست أباً زيد الهلالي " (24) .

"و حق محمد لن أكون أباً زيد الهلالي فأرسل له قومي يأتون به (ذياب) من بلاد العيش " (25) و يستمر استحضار شخصيات السيرة الهلالية في رواية "نوار اللوز" على هذا النحو، لكن ذلك الاستحضار أو الاستدعاء يأتي لتحقيق مبتغى واحد وهو المشابهة. و بما أن الأمر يتعلق بسعي الرواية إلى إسقاط وقائع التاريخ وأحداثه التي ترويها السيرة على الواقع الذي يحياه صالح بن عامر الزوفري فإن خاصية المشابهة بين الشخصيات التاريخية أو شخصيات السيرة وشخصيات الواقع أو الحاضر أو شخصيات الرواية واردة جدا و قريبة من المشابهة خاصة أخرى هي المقابلة : مقابلة اللحظة باللمحة والسلوك بالسلوك والفعل بالفعل ، و من هنا يبحث النص الروائي عن سند مقنع لوجوده و تشكله على هذا النحو ، فيجد ذلك السند في النموذج أو المرجعية ، ولذلك تصبح عملية الإسقاط مجرد سلوك آلي. و " في المشابهة تنتهى شخصيات التغريبة الثانية ببعض شخصيات الأولى كالعلاقة التي تغدو بين الجازية ولونجا أو شخصية أحد أذئاب السلطة أو ممارسيها (السبايسي) بأي زيد أو الحسن بن سرحان . وتبدو المقابلة من خلال تباعد العلاقة و تناقضها بين شخصين من التغريبين (صالح و أي زيد) ... " (26).

تتيح علاقة المشابهة التي تربط بين شخصيات السيرة أو (أعلامها) و شخصيات الرواية وجود ثنائيات متصلة ومتطابقة حيناً و منفصلة غيرمتطابقة أحيانا أخرى. ويمكن أن نجمل هذه الثنائيات في :

الجازية / لونجا - صالح بن عامر / أبو زيد الهلالي - السبايسي / الحسن بن سرحان.

و فيما تحقق الثنائيتان الأولى و الثالثة خاصية التطابق بالنظر إلى التشابه الكبير بين كل زوج في الطبيعة والوظائف نجد ذلك التنافر وغياب التطابق في الثنائية الثانية ، إذ يصير سياق التوظيف والاستدعاء على نفي التشابه بين صالح بن عامر الزوفري و أي زيد الهلالي (لست أباً زيد .. لن أكون

أبا زيد الهلالي .. لم يكن أبا زيد الهلالي ...). و على الرغم من هذا النفي فإن النص الجديد أو الرواية لم كن يكف عن استحضار شخصية أبي زيد الهلالي كلما كان الموقف يدعو إلى ذلك .

" إن العلاقة بين شخصيات التغريبة (أبو زيد..) و رجال السلطة في نوار اللوز هي المقامرة و جني الأرباح ضد الجازية و فقراء الوطن الطيبين و المستغلين . العلاقة واحدة و إن تغير الزمن . و نجد الشيء نفسه في المثال الثاني حيث يضع صالح نفسه مثل الجازية ضد السبائسي باعتباره أحد رموز السلطة والذي يشبه الحسن بن سرحان " (27).

و إذا كان لبعض شخصيات الرواية أشباه في السيرة الهلالية فإن الشخصية المركزية ، أي صالح بن عامر الزوفري ، تظل الوحيدة التي لا شبه لها ، وإن حاولت أن تقرن حضورها أحيانا بحضور أبي زيد الهلالي . و تبقى صفة المشابهة بين النموذجين من خلال التأكيد المستمر على نفي العلاقة بينها ، والذي يرد على لسان صالح بن عامر الزوفري ، كما أسلفنا . و هذا وجه من وجوه المفارقة بين النص الروائي والنص التراثي ، و ربما يكون ذلك مراعاة لتوكيد حقيقة عناصر بنية الخطاب السردى ألا و هو الشخصية ، مفادها هذا التحول البنيوي الذي يحدث على مستوى هذا الجزء من احد عناصر بنية الخطاب السردى ألا و هو الشخصية.

و لعل اختلاف السياق التاريخي للرواية و صالح بن عامر الزوفري عن سياق السيرة التاريخي و زمن أبي زيد الهلالي هو الذي أفرز هذا التحول من نموذج بطولي متباه ببطولاته و انتصاراته في حروبه إلى نموذج مقهور مغلوب على أمره، لكنه يسعى إلى إعادة صياغة مفهوم "البطولة" الذي ارتبط بأفعال كتلك التي نسبتها السيرة الهلالية لأبي زيد . و مرة أخرى يمكن استحضار النموذج الدونكيشوتي " لذا تم النظر إلى المشهد الجديد في " نوار اللوز" من زاوية كاريكاتورية محض ، ذلك أن النفي المستمر لصفة أبي زيد عن صالح بن عامر الزوفري يعني موت تلك البطولة، أو على الأقل ، موت زمنها وولادة زمن آخر يمكن أن يسمى زمن "اللابطولة" .

وينسجم هذا الفهم مع التحول العميق الذي عرفه فن القص في الآداب الغربية منذ القرن السادس عشر الميلادي و ما تلاه ذلك التحول الذي أعلن ميلاد فن الرواية وموت الفنون السردية الكلاسيكية و منها الملحمة الرومانسية أو قصص الشطار . إن نهاية "البطل" في دونكيشوت أو الدونكخوته دي لامانشا أفضت إلى ولادة الرواية ، فهل يجوز لنا القول إن موت " أبي زيد الهلالي" في " نوار اللوز" أعلن ميلاد الرواية الجزائرية من خلال صالح بن عامر الزوفري ؟

و إذا كانت "نوار اللوز" تحاول أن تتباعد قليلا عن مرجعيتها "السيرة الهلالية" في حالة أبي زيد الهلالي / صالح بن عامر الزوفري فإنها تقترب منها كثيرا في حالات أخرى و منها حالة الجازية/ لونجا ، إذ ثمة الكثير من الملامح والصفات التي تجمع بين النموذجين ، منها ما يتصل بالجانب الحسي المباشر ومنها ما

يتصل بالجوانب المعنوية والروحية . و يبدو أن القبول باستعارة نموذج الجازية كما هو في السيرة وإحلاله في نموذج راهن روائي هو لونها ينسجم تماما مع فكرة رفض نموذج أبي زيد ذلك أن هذا النموذج مناقض لنموذج الجازية في السيرة ونموذج صالح بن عامر الزوفري في الرواية ، و تكون محصلة هذا وجود ثلاثة نماذج متقاربة هي : الجازية / لونها / صالح بن عامر الزوفري .

إن في هذا التألف عملية انتقاء عميق الأبعاد ، فقد استغلت رواية نوار اللوز السيرة الهلالية استغلالا خاصا حين قبلت منها ما شاءت ورفضت منها ما شاءت لأن القصد من الاستغلال أو الاستعارة أو التناص ، إنما يكمن في قدر الحاجة إليه ، لذلك يفرض النص اللاحق أو الرواية سلطته الخاصة على النص السابق أو السيرة ، فلا تكون ثمة تبعية أو خضوع مطلق لأي منها للآخر . و سنحاول أن نبين هنا حدود هذا الاستغلال أو التناص في عنصر الشخصية ، و التي نلخصها في النقاط التالية:

1- لم تعلن رواية نوار اللوز عن أنها تحكي فن السيرة الشعبية إعلانا مباشرا ، لكنها أومأت إلى ذلك في العنوان الفرعي " تغريبة صالح بن عامر الزوفري " ، لكن الكاتب جهر بأن متنه المنشور تحت هذا العنوان إنما هو "رواية" ، بمعنى أنها تنتمي إلى نموذج الرواية المعاصرة ذات الأصول الغربية و لا تنتمي إلى المرجعية التاريخية التي تومئ إليها .

2- كان استغلال الرواية لنموذج التغريبة خاصا جدا لم يتجاوز حدود اللفظة أو المصطلح ، فهي تبنت التغريبة لكنها حادت بها عن مفهومها أو أصلها المرجعي عندما نسبتها لصالح بن عامر الزوفري لتكون الإشارة واضحة إلى أن "نوار اللوز" تحكي جزء من سيرة بني هلال لكنها لا تسير على نهجها و إنما تريدها "تغريبة" معاصرة لا تروي بطولات أفراد القبيلة و فرسانها و شجعانها و إنما تقص تفاصيل الحياة اليومية لرجل عادي من المسحوقين.

3- لم تستطع رواية "نوار اللوز" الانفصال التام عن البنية اللغوية لتغريبة بني هلال من حيث المزاوجة بين الشعر والنثر و اللغتين الفصيحة و العامية ، لكن ذلك لا يعني خضوع الرواية خضوعا مطلقا لنموذج المرجعية و إنما خطت "نوار اللوز" لنفسها لغة فصيحة جديدة لا تحاكي اللغة الكلاسيكية و إنما توفر لنفسها شروط الانتماء إلى لغة الرواية و لغة القرن العشرين . و لعل هذا ما يشكل مفارقة بينها وبين اللغة في تجارب روائية عربية أخرى حاكمت النموذج التراثي محاكاة مطلقة امتدت إلى استعارة اللغة التراثية مع استعارة الشكل أو النموذج ، كما نجد ذلك في "الزيني بركات" أو "حدث أبو هريرة قال" مثلا .

4- لقد تعاملت رواية "نوار اللوز" مع شخصيات "السيرة الهلالية" بوصفها مجرد أصداء أو ظلال ليس لها أي امتداد في الحاضر أو الأحداث أو شخصيات الرواية . لم تكن سوى أسماء تتكرر على ألسنة

هذه الشخصيات ، و يمكن القول إن "نوار اللوز" صنعت شخصياتها الخاصة بها التي تحقق هويتها و استقلالها من خلال التشابه أو التقابل أو التمايز عن الشخصيات المرجعية .

5- إن المفارقة بين "التاريخ" و "الواقع" تتحقق في رواية نوار اللوز ، فثمة ثوابت في هذا التاريخ يمكنها أن تبعث في كل واقع أو في كل زمن على صورتها أو على صورة تقترب منها ، لكن لكل "واقع" متغيراته التي لا يمكن أن تحدث في زمن سابق أو لاحق . إن لهذا الجزء المتصل بالمتغيرات امتدادين أحدهما واقعي مفرط في الواقعية و ثانيها خيالي مفرط في الخيال وتؤكد ثنائية البطولة في التاريخ أو السيرة واللابطولة في الواقع أو في الواقع أو الرواية.

هوامش البحث

- 1 - يقطين ، سعيد : الرواية والتراث السردى . ط 1 . المركز الثقافي العربي . بيروت . 1992 . ص 49 .
- 2 - نفسه .
- 3 - نفسه .
- 4 - نفسه
- 5 - السابق ص 139 .
- 6 - نفسه .
- 7 - بورايو ، عبد الحميد : البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري . ص 20 .
- 8 - بورايو ، عبد الحميد : منطق السرد . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . ص 19
- 9 - يقطين ، سعيد : الرواية والتراث السردى ص 52
- 10 - واسيني ، الأعرج : نوار اللوز .. تغريبة صالح بن عامر الزوفري . ط 1 . دار الحداثة . دمشق . 1983 . ص 5
- 11 - يقطين ، سعيد : الرواية والتراث السردى ص 49 .
- 12 - عبد الله ، ابراهيم : السردية العربية . ط 1 . المركز الثقافي العربي . بيروت . 1992 . ص 125 .
- 13 - روزلين ، ليلي قريش : مقدمة سيرة بني هلال . موفم للنشر . 1998 . ص 11 .
- 14 - يقطين ، سعيد : الرواية والتراث السردى ص 55 .
- 15 - ورايو ، عبد الحميد : منطق السرد . ص 138 .
- 16 - زوفري : عامل بسيط . بالعامية الجزائرية . وأصلها الفرنسي : ouvrier
- 17 - واسيني ، الأعرج : نوار اللوز . ص 12 .
- 18 - يقطين ، سعيد : الرواية والتراث السردى ص 50 .
- 19 - السابق ص 52
- 20 - يقطين سعيد : الرواية و التراث السردى ، ص 55 .
- 21 - واسيني الأعرج : نوار اللوز ، ص 8 .
- 22 - السابق : ص 10 .

23 السابق :ص 18.

24 السابق : ص 28.

25 السابق : ص 117.

26 يقطين ، سعيد : الرواية و التراث السردى ، ص 55.

27 السابق ، ص 56.